



العقل العربي 69

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السادس عشر التحليل النفسي للتغريب

6. المعايير الغربية والفوائد الجماعية

على الرغم من هواجس المسلمين عن الغرب والتغريب. فإن من ينظر بعيون غربية إلى النتائج التي أنجزها يتولد لديه انطباع بتحقيق سلسلة عظيمة نافعة متعددة الجوانب من التغييرات التي أدت إلى تحسينات كبيرة في حياة المواطن العربي. وعلى حد علمي، لا يوجد كاتب عربي واحد كالمديح لما عناه التغريب للعالم العربي؛ ولكن بعض المحللين وصولاً إلى درجة عددوا فيها. جنباً إلى جنب مع جلبه الغرب من شرور إلى عالمهم، الفوائد التي حصدها العرب من اتصالهم بالغرب؛ ومن هؤلاء الكاتب السوري محمد كرد علي الذي أدرج في كتابه المبكر (الإسلام والحضارة العربية) المطبوع عام 1934 قائمة بالجوانب الإيجابية التي تبناها «الشرق» (أي: العرب) من الغرب. وهي، بحسب المؤلف: معنى الوطن والوطنية (بما في ذلك بعض المؤسسات العامة الغربية كالبرلمانات والمحاكم وما أشبهه)؛ والصحف والصحافة؛ وترجمة الأدب الغربي (بشقيه الإبداعي والتحقيقي)؛ وبعض العلوم (كالإقتصاد والطب وما أشبهه)؛ ونظام تعليمي متطور.

بالإضافة إلى ما سبق، يورد كرد علي اعترافه الكامل بسيادة التكنولوجيا الغربية، وبالأخص في مجالات الزراعة والإنتاج الصناعي والطب والنقل والعلوم العسكرية والإدارة وما شاكل ذلك. وهو يوصي بتبني هذه المجالات، ويؤكد على أنه ما من أمر سيئ في القبول بتلقيها من الغرب بما أن «الغربيين أخذوا عند نهضتهم من العرب كل ما استطاعوا استخدامه، وهم الآن يعيدون بعض ما تعلموه من أسلافنا وأضافوا إليه ما يتوافق مع مرور الأزمان»¹.

(1) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية؛ ج 1 ص 351-363.

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

ولا شك في أن تأثير الغرب لم يحدث تغييرات أساسية في العديد من وجوه الحياة في الدول العربية فحسب، وإنما أجبر العرب على الأخذ بنظرة جديدة إلى العالم، والحياة، وبالأخص: العلاقة بين البشر. وثمة عدد كبير من المسلّمات الأساسية التي طورها الغرب خلال قرنين أو ثلاثة من الزمن، ما أن أصبح العالم العربي على علم بها حتى ظهرت وكأنها من البديهيات وليس هنالك من شك في صحتها، وأهم هذه المسلّمات يمكن أن تصنف ضمن عنوان (الفوائد الجماعية Mass Benefits)، ويمكن القول عموماً أن العالم العربي قبل دون ارتياب كل الجوانب التي تدخل ضمن نفس المصطلح عند الغرب: كالتعليم العام، ومحو الأمية، والمعايير الغذائية، وخدمات الصحة والنظافة، والضمان الاجتماعي، والعمليات الديمقراطية، وكان لبعض الدول العربية التي شهدت ارتفاعاً مفاجئاً في عوائد النفط ما مكنها من الحصول على الدخل الكافي لتتحول إلى دول تنعم بالرفاهية، والرفاهية بحد ذاتها مفهوم غربي يتضمن السعي نحو آخر ما يمكن أن ينجز لتحقيق الهدف المثالي الذي يتجسد في تقديم كافة الفوائد الجماعية إلى كافة مجالات حياة الإنسان. فقبل قرن من الزمان، كان للدخل السابق ذاته أن يبقى حبيس خزائن الحكام، وللشعب أن يستمر على حياته التي عاشها أسلافه من قبل. أما اليوم فلا يجادل في حق الناس بأن حصلوا على المزيد والمزيد من الفوائد الجماعية القادمة من الفكر الغربي. أما في الدول العربية التي لا يؤهلها الناتج المحلي العام للحصول على مثل تلك الكماليات (99% من العرب يعيشون في دول كهذه)، فإن هدف تحقيق الفوائد الجماعية تم تبنيه من قبل الحكومات فيها، سواء أكان توجهها اشتراكياً أم محافظاً، ولا تزال الجهود تبذل في سبيل الارتفاع بمستوى معيشة الناس فيها.

علاوة على ذلك، برزت لدى معظم الحكومات العربية عادة قياس تقدّم دولها بالمقاييس الغربية لأمثال تلك الفوائد الجماعية، دون أي مقياس تقليدي محلي. فعلى سبيل المثال: تقوم الحكومات العربية بتقديم الإحصائيات التي تشير إلى ارتفاع نسبة الطلبة الذين يرتادون المدارس الابتدائية (وهي ابتكار غربي)، دون وجود إحصائيات لعدد الطلبة الذين يرتادون

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

المدارس القرآنية. أو الكتاتيب. والتي كانت جزءاً جوهرياً من نظام التعليم التقليدي العربي على امتداد قرون. وبغض النظر عن قلة من الأصوليين التقليديين المتطرفين. لا يجادل أحد في الرغبة بتنمية تعليم أولي علماني على حساب المدارس القرآنية. كما لا يجادل أحد في الحاجة إلى تعليم الأطفال جميعهم. والكبار من الأميين إن أمكن. القراءة والكتابة على الرغم من أن التعليم الابتدائي العام الإلزامي كان من التطورات الحديثة الفريدة والخاصة بالغرب. وكان يمكن للعرب. على نحو خاص. أن يقفوا ضده في دولهم محتجين بأن عصرهم الذهبي قام على قلة من الأفراد المتعلمين الذين وصلوا إلى مستويات غير مسبوقة ضمن شعب لا يكاد يوجد فيه أي متعلم. على الرغم من هذه السابقة التاريخية. أقرت كافة القيادات السياسية العربية ومعظم العرب النظرة الغربية لقيمة محو الأمية دون نقد أو جدل. فأصبحت بنظرهم بمثابة (الخير الأسمر). دون النظر إلى قيمتها العملية الحقيقية لدى القبائل البدوية التي ترعى الجمال (مثلاً). ينبغي أن لا يفهم هنا أنني أنصح بعدم الاستمرار في الجهود العربية لمكافحة الأمية. ولكن جل ما أُرغب في الإشارة إليه هو أنه على الرغم من ماض كانت فيه القراءة والكتابة مهارة خاصة في العالم العربي. كحال صناعة السيوف والبرونز. فإن تأثير الغرب هو الذي جعل القراءة والكتابة ينظر إليها باعتبارها ضرورة لقيت الإقرار والممارسة. وعلى حد علمي. تم ذلك دون مساءلة الفرضية النظرية التي تقف خلف هذه الجانب الخاص من الحضارة الغربية.

هذا المثال. وهنالك غيره من أوجه الحياة المختلفة. يرسم صورة للموقف الذي يميز تقييم العرب للتغريب. فأية بقية من بقايا الهيمنة الغربية تتعرض للحنق الشديد. والتبعية الاقتصادية العربية للغرب ينظر إليها بعين العار وقد تتخذ بحقها إجراءات متشددة أحياناً. أما التفوق الثقافي الغربي في نطاق مثل التكنولوجيا فيقابلة إقرار مبطن بالضغينة. والتفوق العربي في المجال الروحي يؤكد عليه بهدف التعويض. لكن الفرضيات الأساسية الكبرى للثقافة الغربية تم القبول بها. وأي جدال حول صلاحيتها للعالم العربي يلقي الرفض والنقمة. وهكذا. بينما يعارض العالم العربي الغرب ويكرهه دائماً. فإنه ينظر إلى

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

نفسه وبقيمها وفق المنظور الغربي. إنه يقارن كافة منجزاته بمثيلاتها عند الغرب، وأينما وجد بأنها تنقص عنصرا موجودا لدى مثيل غربي، أحس بأنه يحتاج إلى ذلك العنصر. إن هذا هو المأزق الذي يعيشه العالم العربي في الثلث الأخير من القرن العشرين.